

من أساليب البيان الحجاجي في القرآن الكريم

الأستاذ

عبد الصمد شريفي

قسم اللغة العربية وآدابها

المركز الجامعي بلحاج بوشعيب

عين تموشنت - الجزائر

الخلاصة

يختلف القرآن الكريم في نَظْمِهِ عن النثر والشعر، ولكنه في ذات الوقت يجمع من الخصائص ما يُحَيِّر السامع له، ولإعجاز النَظْم في القرآن الكريم عدّة مظاهر يتجلّى فيها. فأهم سمة تطبعه هي "الإعجاز"، وقد انشغل العلماء بالكشف عن مظاهر هذا الإعجاز، فقدموا الكثير من الآراء والطروحات التي تبين وتكشف أساليبه. فمنهم من ربطه بإحاطته الكلية التي شملت مختلف الظواهر الكونية، ومنهم من جعله على صلة بقدرته الدقيقة والراشدة في بسط الأحكام الشرعية وتنظيم العلاقات البشرية، ومنهم من رده إلى سمة "البيان" بوجه عام. وقد تنوعت البحوث التي تكشف عن تجليات البيان في القرآن الكريم. وبحثي يتناول وجها من وجوه البيان في الإعجاز القرآني، المتعلق بـ "الحجاج"؛ فالقرآن حوى كثيرا من مواقف المحاجة، موجهة للتأثير على آراء المخاطب وسلوكياته، واستمالة العقول، وتوجيه النفوس. ولذلك وظف الكثير من الأساليب الحجاجية التي تؤمن له هذه الغايات. وسأتناول موضوعي " من أساليب البيان الحجاجي في القرآن الكريم " كالتالي: -في البداية قراءة في المفاهيم: البيان، الحجاج في درس اللغوي، والعلاقة بينهما منتجة "البيان الحجاجي". - ثم البيان الحجاجي في القرآن ونماذجه. - وأخيرا خاتمة حوصلة الدراسة.

Some Styles of Argumentative Statement in Holy Quran

Prof. Cherifi Abdessamed
University center Belhadj BOUCHAIB
Ain Temouchent - Algeria

ABSTRACT

Koran is different in its organization not as any text or poetry, but at the same time combines a lot of specifications what baffles the listeners. The most important feature is a "miracle", scientists have been busy to detect manifestations of this miracle. They introduced a lot of ideas and proposals that show and reveal his styles. Some of them linked to the college, which included various cosmic phenomena briefing him, and some of them link the miracle to its organization of human relations, from whom the response to the feature "Eloquence" in general. Studies that reveal the manifestations of the statement in the Qur'an have varied. My study gives one reason of the Quranic miracle, related to the "Argumentation". Koran contained many of the positions in argument, oriented to influence the views of the listeners and their behavior, and swaying the minds, and guide souls. Therefore, used a lot of orbital methods that give it these goals. And I will process in my study named « the argumentative eloquence in Koran » as follows: -At the beginning read in concepts: The Eloquence, the argumentation in the language lesson, and the relationship between them guide to "The Argumentative eloquence". -Then The Argumentative eloquence in the Koran and some examples. -finally Conclusion of study.

مفهوم البيان ووسائله

جاء في لسان العرب "البيان ما بين به الشيء من الدلالة وغيرها. وبان الشيء بيانا؛ اتضح فهو بين... وأبنته أنا؛ أي أوضحته... وقالوا بان الشيء واستبان وتبين، وأبان وبين بمعنى واحد. ومنه قوله تعالى: (آيات مبينات) بكسر الياء وتشديدها بمعنى "مبينات"، ومن قرأ "مبينات" بفتح الياء فالمعنى أن الله بينها... والتبيين الإيضاح" (1). فالبيان هو الإيضاح عن المقصود، ولكنه يتم ببلاغة ودقة، وهذا ما نلاحظه في الحديث الشريف الذي رواه ابن عباس عن النبي أنه "قال: ((إن من البيان لسحرا، وإن من الشعر لحكما))؛ "فالبيان إظهار المقصود بأبلغ لفظ، وهو من الفهم وذكاء القلب مع اللسان، وأصله الكشف والظهور" (2). فالبيان إظهار المعنى بدقة وذكاء، حتى يقع في العقول، وتميل له النفوس.

وقد وردت لفظة "بيان" في القرآن الكريم في آيات كثيرة؛ منه قوله تعالى: (هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين) (3)؛ أي إيضاح وطريق هد لكل متق. وقول تعالى: (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه) (4)؛ أي إظهار أحكامه ومقاصده ككل.

فالقرآن الكريم كله "بيان" لم يجب أن يكون عليه الإنسان ف علاقته مع خالقه والمحيط الذي يعيش فيه. وكانت اللغة السبيل إلى هذا البيان لذلك قال تعالى: (يلسان عربي مبين) (5)، فمن سمات لغة القرآن الكريم والعقيدة الإسلامي ككل "البيان والإيضاح"، ولذلك قال الرماني: "القرآن كله في نهاية حسن البيان" (6).

والبيان لدى الجاحظ "اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته... لأن مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الوضع" (7). فالبيان مرتبط بالدلالة الظاهرة عن المعنى الخفي؛ فكل دلالة واضحة على المعنى المقصود عنده "بيان"؛ لأن الغاية هي الفهم والإفهام.

وذكر الرماني أن البيان "هو الإحضار لما يُظَهَر به تميّز الشيء من غيره في الإدراك" (8)؛ فالبيان مرتبط بإظهار ما يمكن أن يتميّر به الشيء عن غيره. وأوضح أنه على أربعة أقسام؛ كلام وحال وإشارة وعلامة، وربط الكلام المبين بالقول الواضح المفهوم.

كما ذكر أن البيان في كلامه يكون عن طريق كيفيات معيّنة، ف "لا يخلو من أن يكون باسم أو صفة أو تأليف من غير اسم بمعنى أو صفة... ودلالة الأسماء والصفات متناهية، فأما دلالة التأليف فليس لها نهاية، ولهذا صحّ التحدي فيها بالمعارضة لتظهر المعجزة" (9).

فالقرآن الكريم كلام مبين، تحدى به الله البشر في بيانه التألّفي، ولذلك وُصِف بالبيان في أعلى مراتبه.

*القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم.

(1) لسان العرب، ابن منظور، بيروت، دار صادر، ط 1 (د.ت)، ج2، مادة (بين).

(2) المصدر نفسه، مادة (بين)

(3) آل عمران (138)

(4) القيامة (18-19)

(5) الشعراء (195)

(6) النكت في إعجاز القرآن، الرماني، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله ومحمد زغول سلام،

مصر، دار المعارف، ط 2، سنة 1968، ص 107.

(7) البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، ط 3، سنة 1968، ج1، ص 75 - 76.

(8) النكت في إعجاز القرآن، ص 106.

(9) نفسه، ص 107.

مفهوم الحجاج في الدرس اللغوي

يعتبر البحث في "الحجاج" من نتائج التحول العميق الذي اكتنف الدرس البلاغي الحديث، وكان من إفرازاته أن تخلت البلاغة عن نزعتها المعيارية في فرض القواعد، لتتهتم برصد الوقائع فقط. وقد كان من أهم أسبابه التغيير الجذري الذي مسّ البحوث اللسانية بوجه عام.

لقد كشف تجدد الاهتمام بالدرس البلاغي في العصر الحديث عن طروحات علمية مغايرة، أدى إلى ظهور بلاغة جديدة. ويذكر "إيفانوكس" أنّ النجاح الحالي لها "قد اعتمد على العلاقة اللازمة بين البلاغة ودراسة وسائل الإقناع في مجتمع يتجه يوماً بعد يوم نحو علوم التحريض والدعاية، فسيادة وسائل الإعلام في ثقافتنا تجعل من الخطابة بوصفها ممارسة إبداعية للإقناع، ومن البلاغة بوصفها تقنية ملائمة للإقناع أيضاً، نقطتي إحالة لا بدّ منهما في لحظة سيستعيد فيها الشعب المستهلك السيادة على القديم. . .

وعلى آية حال فإننا نعيش لحظة استراتيجيّة الإقناع والتركيز على أدوات الحضور⁽¹⁾. وقد أضحى "الحجاج في رحاب هذا التحول مطلباً أساسياً في كلّ عملية اتصالية تستدعي الإقناع. وانطلاقاً من الدور البالغ الذي أصبحت نظريّة الحجاج تلعبه، أو من المفروض أن تلعبه، جعل "بريلمان Perelman" يعتبر أنّ البلاغة مطابقة لنظريّة الحجاج؛ فقد حصر الأولى في الأخيرة⁽²⁾.

وفي اللغة "حاجته أحاجه حجاجاً ومحاجّة من حجّته بالحجج التي أدليت بها. والحجّة البرهان، وقيل الحجّة ما دُوّفع به الخصم. وقال الأزهري: الحجّة الوجه الذي يكون الظفر عند الخصومة، وجمع الحجّة حجج وحجاج. وحاجّه محاجّه وحجاجاً نازعة الحجّة.

حجّة يحجّه حجاً غلبه على حجّته، وفي الحديث "فحجّ آدم موسى"؛ أي غلبه بالحجّة واحتجّ بالشيء اتّخذه حجّة، قال الأزهري: إنّما سمّيت حجّة لأنها تُحجّ؛ أي تقصد، لأنّ القصد لها وإليها⁽³⁾. وقال الجرجاني: "الحجّة ما دلّ به على صحّة الدعوى، وقيل الحجّة والدليل واحد"⁽⁴⁾. فأساس الحجاج الارتكاز على دليل معيّن قصد إثبات قضية قضية من القضايا، وبالتالي بناء موقف ما.

ولعلّ أهم شيء تتأسس عليه دلالة "الحجاج" هو وجود اختلاف بين المرسل للرسالة اللغوية والمتلقّي لها، ومحاولة الأول إقناع الثاني بوجهة نظره، بتقديم الحجّة والدليل على ذلك. فالحجاج انتهاج طريقة معيّنة في الاتّصال، غايته استمالة عقول الآخرين والتأثير فيهم، وبالتالي إقناعهم بمقصد معيّن.

وهذا المفهوم هو الجوهر الذي ركزت عليه الخطابة الجديدة؛ إذ "تُطلق لفظة حجج ومحاكاة Argumentation عند بيرلمان وتيتيكاه على العلم وموضوعه، ومؤداها درس تقنيات الخطاب التي تؤدّي بالذهن إلى التسليم بما يعرض عليه من أطروحات، أو أن تزيد في درجة التسليم. وربّما كانت وظيفته محاولة جعل العقل يذعن لما يُطرح عليه من أفكار، أو يزيد في درجة ذلك الإذعان إلى درجة تبعث على العمل المطلوب. وعلى صعيد آخر يمكن القول بأنّ الحجاج في ارتباطه بالمتلقّي يؤدّي إلى حصول عمل ما أو الإعداد له، ومن ثم سيكون فحص الخطابات الحجاجية المختلفة بحثاً في صميم الأفعال الكلامية وأغراضها السياقية، وعلاقة

(1) نظرية اللغة الأدبية، إيفانوكس، ترجمة حامد أبو حمد، القاهرة، مكتبة غريب، ط 1 سنة 1988، ص 177.

(2) مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، محمد سالم ولد سالم ولد محمد الأمين، عالم الفكر، م 28، العدد 3، يناير - مارس، 2000، ص 57.

(3) المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، تحقيق عبد الحميد هنداوي، بيروت دار الكتب العلمية، ط 1، سنة 2000، ج 2، مادة (حجج).

(4) التعريفات، الجرجاني، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الريان للتراث (د، ت)، ص 482.

الترابط بين الأقوال، والتي تنتمي إلى البنية اللغوية الحجاجية⁽¹⁾، فوظيفة الحجاج ترتدّ إلى طرح الحجج التي تضمن النفاذية للخطاب اللغوي، وبالتالي حصول الاقتناع الفعلي بالقضية المطروحة. وهذا يعني توظيف الآليات التي تجتاز الاعتقاد الأولي نحو التغيير، وبناء الموقف المغاير.

وإذا كان الحجاج يرتبط في أساسه بما تستدعيه أساليب إجراء اللغة، فإنّه من الضروري أن نشير إلى أنّ هذا الأمر لا يتوقّف عند هذا الحدّ؛ بل يأخذ بعين الاعتبار ما تقتضيه نوعيّة الخطاب من جهة، ومستلزمات المتلقي من جهة أخرى. فالغاية التي يتأسّس عليها هي مجابهة العقول وإقناعها بالطرح المقدم، ولذا "فليس الحجاج في النهاية سوى دراسة لطبيعة العقول، ثم اختيار أحسن السبل لمحاورتها، والإصغاء إليها ثم محاولة حيازة انسجامها الإيجابي والتحامها مع الطرح المقدم. فإذا لم توضع هذه الأمور النفسيّة والاجتماعيّة في الحسبان فإنّ الحجاج يكون بلا غاية وبلا تأثير"⁽²⁾. لنذكر أنّ نظرية الحجاج تتجاذبها جوانب مختلفة، لا تتعلق باللغة فحسب؛ بل ترتبط أيضاً بالجانب النفسي والاجتماعي والثقافي، وغيره من المستلزمات التي تؤطر وتسهم في إنتاج الخطاب اللغوي الحجاجي.

البيان الحجاجي في الاستعمال اللغوي

بعد تقديم مفهومي "البيان" و"الحجاج" في الدرس اللغوي نستطيع الآن أن نعرّف البيان الحجاجي ونقول إنّه الكشف والإيضاح عن المعنى المقصود بتوظيف الحجّة التي تتمكّن من النفوس والعقول معاً. والهدف ههنا ليس الفهم والإفهام فحسب؛ بل إنّ الأمر يتعلّق بالتأثير والإقناع بالطرح المقدم؛ لأنّ مجال الحجاج كما ذكرنا من قبل هو شبه الحقيقي أو المحتمل أو المشكوك فيه، فهو قائم على طروحات مقبولة، إلا أنّ البعض منها يبقى مبنياً على الاحتمال. ومنه يتجلى الفرق بين الحجاج والبرهان باعتبار أنّ هذا الأخير مجاله البديهي لدى الناس؛ فهو ينطلق من اتّساقات صحيحة وبديهية، أمّا الحجاج فيرتبط بما هو متعدّد الدلالة؛ أي الجدير بالظنّ المعقول والمقبول.

بيّنا أنّ البيان قد يكون في اللفظ أو المعنى أو التأليف، غير أنّ طبيعة هذا الأخير تستدعي ضرورة رصد العلاقات التركيبية وفق ما يقتضيه النظام اللغوي من جهة، وما يمليه السياق المحدّد الذي ترد فيه من جهة أخرى. وقد عبّر لغويونا القدامى عن ذلك بمقولة دقيقة وهي "الكلّ مقام مقال ولكلّ كلمة مع صاحبها مقام"، فأضحى البيان في تأليف الكلام ضمن هذا الطرح مرتيناً بمقتضى الحال، فـ "إذا كان مقتضى الحال إطلاق الحكم فحسن الكلام تحليته بشيء من ذلك، بحسب المقتضى ضعفاً وقوّة، وإن كان مقتضى الحال طي ذكر المسند إليه فحسن الكلام تركه، وإن كان المقتضى إثباته على وجه من الوجوه المذكورة، فحسن الكلام وروده على الاعتبار المناسب، وكذا إذا كان المقتضى ترك المسند فحسن الكلام وروده عارياً عن ذكره، وإن كان المقتضى إثباته مخصصاً بشيء من التخصيصات، فحسن الكلام نظمه على الوجوه المناسبة من الاعتبارات المقدم ذكرها، وكذا إن كان المقتضى عند انتظام الجملة مع أخرى فصلها أو وصلها والإيجاز معها أو الإطناب، أعني طيها عن البين ولا طيها، فسن الكلام تأليفه مطابقاً لذلك"⁽³⁾.

يتّضح في رحاب هذا التوضيح أنّ الصياغة اللغوية ترتبط بالسياقات التي ترد فيها، وذلك بذكرنا عناصر معينة أو حذفها، ويكون لها أهميّة بالغة في الإبلاغ، كما نلاحظ أنّ طبيعة التأليف إيجازاً أو إطناباً أو تجريداً أو تأكيداً تتأثر بحسب المقام الذي ترد فيه. فمستويات التعبير تتنوّع بتنوّع الأحوال والمقامات، يقول السكاكي: "لا يخفى عليك أنّ مقامات الكلام متفاوتة؛ فمقام التشكر يباين مقام الشكاية، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب، ومقام الجدّ في جميع ذلك يباين مقام الهزل، وكذا مقام الكلام ابتداءً يغاير مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار..."⁽⁴⁾. فلو ركزنا

(1) نظرية الحجاج، نعمان بوقرة، مجلة الموقف الأدبي، دمشق اتحاد الكتاب العرب، العدد 407، آذار 2005.

<http://www.awu.sy>

(2) مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، محمد سالم ولد محمد الأمين، مجلة عالم الفكر، ص 68.

(3) مفتاح العلوم، السكاكي، مصر، مكتبة مصطفى البابي وأولاده، ط 2 (د.ت)، ص 73.

(4) السابق، ص 95.

على هذا القول فإننا سندرك أنّ أشكال الاستعمال اللغوي في مختلف العلاقات الاتصالية تتنوّع بحسب مقتضيات الاتصال اللغوي، ولو تأملنا أكثر العبارة الأخيرة واستحضرنا مقولة الحجاج الذي يتأسس على الإنكار أو الشكّ فإننا نلاحظ أنّ البيان الحجاجي يرتبط في أساسه بمستلزمات خاصة تستدعي التركيز عليها من أجل تحقيق التصديق والإقناع بالطرح المقدم.

وذكر أرسطو أنّ هناك ثلاثة أنواع من التصديقات التي قد يلجأ إليها المتكلم من أجل الإقناع، يقول: "فأما التصديقات التي نحتال لها بالكلام فإنها أنواع ثلاثة؛ فمنها ما يكون بكيفية المتكلم وسمته، ومنها ما يكون بتبهيئة للسامع واستدراجه نحو الأمر، ومنها ما يكون بالكلام نفسه قبل التثبيت"⁽¹⁾. لنرى أنّ الحجاج في الاستعمال اللغوي يرتبهن بمجموعة من المعطيات؛ منها ما يرتبط بالمتكلم، ومنها ما يتعلّق بالمتلقّي، ومنها ما يبقى على صلة بالرسالة اللغوية نفسها.

فمما يخصّ المتكلم فإنه يجب عليه التحكم في الموضوع الذي يقدّمه، وأن يوفّيه حقه مما تستدعيه الصياغة اللغوية. وفي رحاب هذا التصوّر حذر "بيرلمان" من خطأي الإفراط والتفريط، أو المبالغة أو الإهمال فيما يخص المسائل موضع النقاش والتحليل؛ أي "على المتكلم تقديم تصوّره في المساحة الملائمة له، ثم منحه القدر المناسب من الحجج التي لا يشكل إيرادها لدعم الموضوع مفارقة أو نشازاً؛ لأنّ تهويل الموضوع ومنحه مساحة أكبر من حجمه، ثم التوسّل بعد ذلك بجلّ الأطر المعرفية السائدة في بيئة معينة من أجل دعمه وإثباته هو أمر باعث على السخرية وموّدّ لتهافت الحجاج. وبالمقابل فإنّ عرض الفرضيات والتحليلات في الهامش أو أي الظلّ، وعدم الانتباه إلى أهميتها في مقام الإلقاء هو بدوره دليل على عدم خبرة المتكلم وتشوّش أفكاره، وهي كلها أمور يدركها جلّ المعنيين بالخطاب، كما تدركها بوجه أفضل الأطراف المعارضة للخطاب؛ بل قد تعتمد هذه الأطراف إلى التقاط تلك الهفوات وتوظيفها وإثرائها بما ترى أنّ المقام يستدعيه"⁽²⁾.

أما فيما يتعلّق بالمخاطب؛ أي متلقّي الرسالة الإبلغية ذات الحكم المعين فإنه يستدعي مراعاته في الحجاج. وقد أشار لغويونا إلى أنّ المخاطبين الذين يُلقى إليهم الخبر يصنّفون إلى ثلاث أصناف:

أ- مخاطب خالي الذهن. ب-مخاطب شاكّ متردّد. ج-مخاطب جاحد منكر⁽³⁾.

أمّا فيما يخصّ البيان الحجاجي المرتبط بالرسالة اللغوية فيتعلّق بالآليات اللغوية التي قد يوظّفها المخاطب في الكلام من أجل تحقيق الغاية من الحكم المبسوط فيه تصديقاً أو تكذيباً، إنكاراً أو إقراراً، أو غير ذلك. وقد وضّح ذلك السكاكي أكثر في باب "الإسناد الخبري" حيث قال: "أما الاعتبار الراجع إلى الحكم في التركيب من حيث هو حكم من غير التعرض لكونه لغوياً أو عقلياً فإنّ ذلك وظيفة بيانية، فكون التركيب تارة غير مكرر ومجرداً من لام الابتداء وإن المشبهة والقسم ولامه ونوني التوكيد كنحو "عرفت عرفت"، و"الزيد عارف"، و"إنّ زيداً عارف"، و"إنّ زيداً لعارف" و"والله لقد عرفت أو لأعرفن" في الإثبات وفي النفي كون التركيب غير مكرر ومقصوراً على كلمة النفي مرّة، كنحو "ليس زيد منطلقاً"، وغير مقصور على كلمة النفي كنحو "ليس زيد بمنطلق"، و"ما إن يقوم زيد"، و"والله ما زيد قائماً"، فهذه ترجع إلى نفس الإسناد الخبري"⁽⁴⁾.

وضمن هذا التوضيح نشير إلى أنّ الحكم المبسوط في الاستعمال اللغوي يرتبط تجريباً أو تأكيداً بحسب ما تقتضيه الأصناف الثلاثة التي أشرنا إليها من قبل، وطالما أنّ البيان الحجاجي يستدعي "التأثير"، والذي يعتبر اللغة من

(1) الخطابية، أرسطو، تحقيق عبد الرحمن بدوي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1959، ص 9.

(2) مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطور في البلاغة المعاصرة، محمد سالم ولد محمد الأمين، ص 81.

(3) في بلاغة الخطاب الإقناعي، محمد العمري، الدار البيضاء، أفريقيا الشرق، ط 2، سنة 2002، ص 35.

(4) مفتاح العلوم، ص 64.

المنظور الحديث فعلاً وحجاجاً، وليست نقلاً للمعلومات وإخباراً عنها⁽¹⁾، فإنه من الضروري توظيف الآليات اللغوية التي تحقق ذلك، وهو الجوهر الذي تبحث فيه "نظرية الحجاج اللغوية".

وقد يكون من المفيد في إطار هذا التوضيح استلهم نموذج "ديكرو O.Dicrot"، وبالخصوص ورد في كتاب "السلميات الحجاجية"، والذي استعرض فيه مبادئ نظرية الحجاج اللغوية ومنطقاتها، كما قدم فيه قواعد السلم الحجاجي. و"ينبغي الإشارة في هذا الإطار إلى أنّ الظواهر الحجاجية اللغوية التي تم التركيز عليها، واسترعت اهتمام "ديكرو Dicrot" هي الروابط الحجاجية النحوية؛ مثل الواو، الفاء، ثم، والروابط التداولية الحجاجية؛ نحو بل، لكن، حتى، لاسيما، فمثلاً إذا كان الواو داخل نصّ ما يحقّق الانسجام النحوي، فإن "لكن" يحقّق الانسجام التداولي والحجاجي. كما أنّ الدليل الذي يرد بعد "لكن" يكون أقوى من الدليل الذي يرد قبلها، وتكون له الغلبة بحيث يتمكن من توجيه القول بمجمله⁽²⁾. فلعلّ أهم شيء يمكن ملاحظته من هذا التوضيح هو ارتهان الحجاج اللغوي بروابط حجاجية في التركيب اللغوي، تسهم في ضبط العلاقات التي يمكن ملاحظتها بين الحجّة والنتيجة.

وقد ذكر "ديكرو Dicrot" أيضاً أنّ قواعد السلم الحجاجي تنبئ على مفهوم السلم الحجاجي وقوانينه. و"تعريف السلم" بأنه مجموعة غير فارغة من الأقوال مزودة بعلاقة ترتيبية ومستوفية للشرطين التاليين:

- أنّ كلّ قول يقع في مرتبة ما من السلم يلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال الأخرى.

- وأنّ كل قول في السلم كان دليلاً على مدلول معيّن كان ما يعلوه مرتبة دليلاً أقوى⁽³⁾. وضمن هذا الطرح نلاحظ أنّ قواعد السلم الحجاجي تهدف في أساسها إلى تأكيد نتيجة معيّنة، تسبقها معطيات أو بالأحرى مقدّمات، تسهم بطريقة مضبوطة في التقديم في تحقيق القضية المطروحة أو دحضها.

البيان الحجاجي في القرآن الكريم

قبل المضي في تناول البيان الحجاجي في القرآن الكريم من الضروري أن أركز على المعطيات الأساسية التي يتأسس عليها الخطاب القرآني، والتي جعلته خطاباً حجاجياً بدرجة أولى؛ لأنه كما قلنا جاء ليبسط للعالمين عقيدة عالمية، تقتضي توظيف الآليات الحجاجية التي تحتوي العقل الإنساني وتقنعه، وهذه المعطيات هي:

أ - الخطاب القرآني يسعى إلى "الإقناع"، مستعملاً في ذلك آلياته التعبيرية وأساليبه البلاغية وطروحاته المنطقية من قياس وبرهان وتمثيل فيبحث الباحث في آليات الإقناع المنتهجة فيه.

ب - القرآن الكريم هو خطاب موجّه إلى مخاطب كوني؛ أي هو خطاب موجّه إلى البشرية جمعاء، في كل مكان وزمان، قال تعالى: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)⁽⁴⁾، فالرسول - بُعث إلى كافة الناس.

ج - كونية الخطاب القرآني جعلته يقوم على توظيف أساليب متنوعة في التبليغ، تقوم على التأثير واستمالة الآخرين، واستنفارهم بغية استنهاض ملكتهم وجعلهم ينخرطون في الحركة الفكرية الموجودة في الخطاب القرآني. فالقرآن الكريم قد استحضر في إنجازهِ كل الاعتراضات التي يمكن أن تدور في خلد المتلقّي الفعلي أو المفترض، ولهذا بسط كل ما يأخذ بذلك.

(1) حول مفهوم الحجاج في الفلسفة، مقاربة فلسفية لسانية ديدانكية، رويض محمد، مجلة فكر ونقد، المغرب، العدد 26،

www.fikrwanakd.aljabriabed.n26-04rueyd.htm

(2) نفسه.

(3) السابق.

(4) الأعراف (158).

نماذج من أساليب القرآن في الاحتجاج

قد بيّنا من قبل أنّ الغاية التي يقوم عليها الحجاج هي تحقيق الاقتناع بالرأي أو بالدعوى المقدّمة، بالاعتماد على الحجّة والدليل على ذلك باستعمال مجموعة أساليب منها.

أ - البيان الحجاجي بالاستفهام

الاستفهام هو طلب المعرفة حول شيء معيّن، وله دور كبير في العمليّة الحجاجيّة، "نظراً لما يعملها من جلب القارئ أو المستمع في عمليّة الاستدلال، بحيث إنّه يشركه بحكم قوّة الاستفهام وخصائصه، فهو أسلوب إنشائي. وهذه الأمور أيضاً هي من سمات الاستفهام البلاغي في القرآن الكريم بحيث إنّه يخدم مقاصد الخطاب ويلعب دوراً أساسياً في الإقناع بالحجة"⁽¹⁾. فللاستفهام بنية حجاجيّة تقوم على طرح القضية المخصوصة، ثمّ تقديم ما يشرحها ويعلّلها.

وقد وُظّف في مواضع من القرآن مثل:

1- قال تعالى: (فَلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (2).

هذا ابتداء احتجاج على الكفار الذين يجعلون الله شركاء. قال الكرمانى: أرايتكم كلمة استفهام وتعجب وليس لها نظير. وقال ابن عطية: والمعنى: أرايتكم إن خفتكم عذاب الله أو خفتكم هلاكاً أو خفتكم الساعة أتدعون أصنامكم وتلجئون إليها في كشف ذلك إن كنتم صادقين في قولكم إنها آلهة بل تدعون الله الخالق الرازق فيكشف ما خفتموه إن شاء وتنتسبون أصنامكم أي تتركونها؟ فعبّر عن الترك بأعظم وجوهه الذي هو مع الترك ذهول وإغفال، فكيف يجعل إلهها من هذه حاله في الشدائد؟⁽³⁾

حجاج على سبيل التسليم والمنع كأن القائل يقول سلمنا لكم بأن آلهتكم تنفعكم فما بالكم إذا أصابكم الضر تركتموها ودعوتم الله؟

2- قال تعالى: (قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكْ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ) (4).

والاستفهام تقريرى، وجعل التقرير على نفي التربيّة مع أن المقصود الإقرار بوقوع التربيّة مجازة لحال موسى في نظر فرعون إذ رأى في هذا الكلام جرأة عليه لا تناسب حال من هو ممنون لأسرته بالتربيّة لأنها تقتضي المحبة والبر، فكأنه يرخي له العنان بتلقين أن يحدد أنه مربيّ فيهم حتى إذا أقر ولم ينكر كان الإقرار سالماً من التعلل بخوف أو ضغط، فهذا وجه تسليط الاستفهام التقريرى على النفي في حين أن المقرر به ثابت.⁽⁵⁾

حاجّ فرعون موسى، مستعملاً استفهام التقرير للتذكير بسبق تربيته له سنينا وذلك وصولاً إلى إلزامه بحق العبودية له دون الله. كأنه يريد أن يذله من حيث أحسن إليه.

(1) البنية الحجاجية في القرآن الكريم، سورة النمل نموذجاً، الحواس مسعودي، مجلة اللغة والأدب، معهد اللغة العربية وآدابها، العدد 12 ديسمبر 1997، ص 341 - 342.

(2) الأنعام: 40.

(3) البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي محمد بن يوسف بن علي بن يوسف أثير الدين الأندلسي (المتوفى: 745هـ)، تح: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر - بيروت، ط1، سنة 1420 هـ، ج4، ص 507.

(4) الشعراء: 18.

(5) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور محمد الطاهر بن محمد بن محمد التونسي (المتوفى: 1393هـ)، نشر الدار التونسية للنشر - تونس، ط1، سنة 1984 هـ، ج19، ص 111.

3- قوله تعالى: (أَأَنْتَ فُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخُوْنِي وَأُمِّي إلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ)⁽¹⁾

وذكر المفسرون أنه لم يقل أحد من النصارى بالهية مريم رضي الله عنها، فكيف قيل إلهين، وأجابوا بأنهم لما قالوا لم تلد بشرا وإنما ولدت إليها، لزمهم أن يقولوا من حيث البعضية بالهية من ولدته، فصاروا بمثابة من قال. انتهى.⁽²⁾

في الآية احتجاج عليهم بلازم قولهم وهو أن مريم عليها السلام ولدت إليها وليس بشر فلازم ذلك أنها إلهة مستعملا في ذلك الاستفهام التقريري للتوبيخ

4- قال تعالى: (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا)⁽³⁾

أصله على ما قيل أهل على أن الاستفهام للتقرير أي الجمل على الإقرار بما دخلت عليه والمقرر به من ينكر البعث وقد علم أنهم يقولون نعم قد مضى على الإنسان حين لم يكن كذلك فيقال فالذي أوجده بعد إن لم يكن كيف يمتنع عليه إحيائه بعد موته.⁽⁴⁾

في الآية احتجاج على منكري البعث أن ما كان عدما في الأصل وخلق -وهذه القضية الأولى-، فسهل على الله إحيائه بعدما وجدت أجزاء منه بعد موته-وهذه القضية الثانية-، فمن أقر بالأولى لزمته الثانية.

ب - البيان الحجاجي بالقصر

القصر: لغة الحبس - قال الله تعالى (حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ) واصطلاحاً: هو تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص. والشيء الأول: هو المقصور، والشيء الثاني: هو المقصور عليه. والطريق المخصوص لذلك التخصيص يكون بالطرق والأدوات المعروفة. مثلا:

1- قوله تعالى (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)⁽⁵⁾

أي أن محمد صلى الله عليه وسلم، مقصور على الرسالة لا يتعداها الى البعد عن الهلاك بناء على استعظام الصحابة ألا يبقى رسول الله صلى الله عليه وسلم، لهم فكانهم أثبتوا له وصفين: الرسالة وعدم الهلاك، فخصص بقصره على الرسالة، فهو من إخراج الكلام لا على مقتضى الظاهر، وهو قصر أفراد، ردا على من يدعي أمرين أو أحدهما بلا ترجيح، وهو على كل حال من باب القصر القلبي، لأنهم لما انقلبوا على أعقابهم فكانهم اعتقدوا أنه رسول لا كسائر الرسل صلى الله عليه وسلم في أنه يموت كما ماتوا وأنه يجب عليهم التمسك بدينه بعده كما يجب التمسك بأديانهم بعدهم.⁽⁶⁾

(1) المائدة: 116.

(2) البحر المحيط ج4، ص 416.

(3) الإنسان: 1.

(4) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للألوسي شهاب الدين محمود ابن عبد الله الحسيني، تح: على عبد الباري عطية، نشر دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، سنة 1415 هـ، ج15، ص 166.

(5) آل عمران: 144.

(6) إعراب القرآن وبيانه، لمحيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (المتوفى: 1403 هـ)، نشر دار الإرشاد للشئون الجامعية الجامعية - حمص - سورية، (دار اليمامة - دمشق - بيروت)، (دار ابن كثير - دمشق - بيروت)، ط: 4، سنة 1415 هـ ج2، ص 64.

لما استبعد بعض الناس موت النبي صلى الله عليه وسلم، احتج الله عليهم بمن كانوا قبله من الرسل مبينا بأسلوب القصر أنه بشر كغيره يعتريه ما يعترىهم من الأمور الكونية وأن الرسالة هي أهم شيء سيبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فلا داعي للانقلاب على أعقابكم.

2- قال الله تعالى (إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ)⁽¹⁾

إنما الله إله واحد قال ابن عطية: إنما في هذه الآية حاصرة، اقتضى ذلك العقل في المعنى المتكلم فيه، وليست صيغة، إنما تقتضي الحصر، ولكنها تصلح للحصر والمبالغة في الصفة، وإن لم يكن حصر نحو: إنما الشجاع عنتره وغير ذلك انتهى كلامه.⁽²⁾ في الآية احتجاج على الناس بحصر الألوهية التي تقتضي العبودية المطلقة في الله الواحد القهار دون غيره من المعبودات.

ج - البيان الحجاجي بالشرط

يقوم الشرط في العربية على أمرين الشرط وجوابه، وقد تكرر كثيراً في القرآن، ومن ذلك:

1- قال تعالى: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ)⁽³⁾

تفضيل للجزاء أي فمن يعمل بعض الصالحات أو بعضاً من الصالحات وهو مؤمن بما يجب الإيمان به فلا كُفران لِسَعِيهِ أي لا حرمان لثواب عمله ذلك، عبر عنه بالكفران الذي هو ستر النعمة وجودها لبيان كمال نزاهته تعالى عنه بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه سبحانه من القبائح⁽⁴⁾

وهذا أسلوب نجده كثيراً في القرآن وفيه احتجاج على من شك في عدالة الباري أن الله لن يضيعه أجره بشرط كونه يعمل الصالحات وهو مؤمن به غير شك.

2- قال جل شأنه: (لَوْ كَانَ هُوَ لَاءَ إِلَهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ)⁽⁵⁾.

المذهب الكلامي: في قوله تعالى: «إِنكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ لَوْ كَانَ هُوَ لَاءَ إِلَهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ» المذهب الكلامي وقد تقدمت الإشارة إليه، وسنزيده بسطاً هنا فنقول:

إذا تقرر أن المذهب الكلامي هو احتجاج المتكلم على ما يريد إثباته بحجة تقطع المعاند له على طريقة أرباب الكلام أو استنتاج النتائج الصحيحة من المقدمات الصادقة كما سيأتي في سورة الحج فإن الآية التي نحن بصددنا يترتب عليها ان هؤلاء الأصنام والأوثان ليسوا بآلهة فلو كانوا آلهة فهم حصب جهنم كما تقدم ان ملزوم قوله تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) هو ما تقديره لكنهما ما فسدتا فليس فيهما آلهة إلا الله ومن النوع الثاني تقدم الكلام في سورة الأعراف على قوله تعالى:

(وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ) فوجه استنتاج النتيجة في هذه الجملة من المقدمتين أن يقال إن الكفار لا يدخلون الجنة أبداً حتى يلج الجمل في خرم الابرة، والجمل لا يدخل في خرم الابرة أبداً فهم لا يدخلون

(1) النساء: 171.

(2) البحر المحيط في التفسير ج4، ص144.

(3) الأنبياء: 94.

(4) روح المعاني - ج9، ص86.

(5) الأنبياء: 99.

الجنة أبداً لأن تعليق الشرط على مستحيل يلزم منه استحالة وقوع المشروط. (1) وهذا احتجاج على طريقة التسليم والمنع.

الخاتمة

بعد هذا العرض تلاحظ أنّ أهمّ شيء يقوم عليه البيان الحجاجي هو تقديم الحجج التي تدعو العقول إلى التدبّر في القضايا انطلاقاً من مقدمات، بغية تنبيه العقول.

فهو يمثل قوّة تدفع المخاطب إلى التفكير والتأمّل من أجل الحصول على الإقرار بحقيقة معيّنة، يتم ذلك بوساطة أدلة مخصوصة كما أنّح من خلال النماذج التي ذكرتها حول البيان الحجاجي في القرآن، وأنّ هذه الأخيرة تتأسس على مواضيع مهمة تقوم على ما يتعلّق بـ "إثبات الوجدانية، والبعث والنشور" وهي الحقائق التي بُعث من أجلها كلّ الأنبياء والمرسلين السابقين. لذلك تلاحظ أنماط البنى الحجاجية في آياته مرتبطة بهذه القضايا.

المصادر

- (*) القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم.
- (1) لسان العرب، ابن منظور، بيروت، دار صادر، ط 1 (د.ت).
- (2) النكت في إعجاز القرآن، الرماني، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، مصر، دار المعارف، ط 2، سنة 1968.
- (3) البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، ط 3، سنة 1968.
- (4) نظرية اللغة الأدبية، إيفانوكس، ترجمة حامد أبو حمد، القاهرة، مكتبة غريب، ط 1 سنة 1988.
- (5) مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، محمد سالم ولد سالم ولد محمد الأمين، عالم الفكر، مجلد 28، العدد 3، يناير - مارس، 2000.
- (6) المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، تحقيق عبد الحميد هندواوي، بيروت دار الكتب العلمية، ط 1، سنة 2000.
- (7) التعريفات، الجرجاني، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الريان للتراث (د، ت).
- (8) نظرية الحجاج، نعمان بوقرة، مجلة الموقف الأدبي، دمشق اتحاد الكتاب العرب، العدد 407، آذار 2005.
- <http://www.awu.sy>
- (9) مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، محمد سالم ولد محمد الأمين، مجلة عالم الفكر.
- (10) مفتاح العلوم، السكاكي، مصر، مكتبة مصطفى البابي وأولاده، ط 2 (د.ت).
- (11) الخطابة، أرسطو، تحقيق عبد الرحمن بدوي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1959.
- (12) في بلاغة الخطاب الإقناعي، محمد العمري، دار البيضاء، أفريقيا الشرق، ط 2، سنة 2002.
- (13) حول مفهوم الحجاج في الفلسفة، مقارنة فلسفية لسانية ديداكنتية، رويض محمد، مجلة فكر ونقد، المغرب، العدد 26، www.fikrwanakd.aljabriabed.n26-04rueyd.htm.
- (14) البنية الحجاجية في القرآن الكريم، سورة النمل نموذجاً، الحواس مسعودي، مجلة اللغة والأدب، معهد اللغة العربية وآدابها، العدد 12 ديسمبر 1997.
- (15) البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي محمد بن يوسف بن علي بن يوسف أثير الدين الأندلسي، تح: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر - بيروت، ط 1، سنة 1420 هـ.
- (16) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور محمد الطاهر بن محمد بن محمد التونسي، نشر الدار التونسية للنشر - تونس، ط 1، سنة 1984 هـ.

(1) إعراب القرآن وبيانه ج6، ص364.

- (17) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للألوسي شهاب الدين محمود ابن عبد الله الحسيني، تح: على عبد الباري عطية، نشر دار الكتب العلمية - بيروت، ط:1، سنة 1415 هـ.
- (18) إعراب القرآن وبيانه، لمحيي الدين بن أحمد مصطفى درويش، نشر دار الإرشاد للشئون الجامعية - حمص - سورية، (دار اليمامة - دمشق - بيروت)، (دار ابن كثير - دمشق - بيروت)، ط:4، سنة 1415 هـ.